الوطنية فى المهجر

للأستاذ حمدى الحسينى

ساءت الحال فى بلاد الشام فى القرن التاسع عشر أيما سوء . وانصبت الويلات على سكان هذه البقعة الطيبة من الوطن العزيز انصباباً قوياً متلاحقاً ، حتى أصبحت هذه البلاد الجميلة مسرحاً لأبشع أعمال الظلم وأقبح أنواع التفريق بين العناصر ، ليتمكن ذلك الظلم من السيادة . فكانت فتنة الستين المشؤومة وتبعتها فتن أخرى جعلت من بلاد الشام جحيما فاتكا بالأموال ، والحريات والأنفس ، فدفعت غريزة حب البقاء فريقاً كبيراً من سكان البلاد إلى التفكير فى الوسائل التى يمكنهم بها أن يحققوا رغبة الحياة ورغبة الحرية . فقلبوا النظر فى هذا الكون الفسيح الأرجاء باحثين عن بقعة من الأرض يمكنهم أن يعيشوا فيها أحراراً كراما فوقع نظرهم على نور الحرية والاستقلال المتألق فى الديار الأميركية بعد ثورتها التحريرية الكبرى فصمموا على الهجرة وركبوا متون الأخطار إلى تلك الديار ، ولا يسع المضطر إلا ركوبها . فعاشوا هنالك بالعزم الصادق والإرادة القوية فضمنوا بالكسب الحلال حياتهم وبالاندماج فى النظام العادل حريتهم .

أجل ! هجر أولئك العرب بلادهم وأقاموا فى بلاد الناس ولكن حب الوطن بقى متمكناً فى نفوسهم محركا لعواطفهم .

كم منزل فى الأرض يألفه الفتى وحنينه أبداً لأول منزل

وما كاد يستقر الحال بهؤلاء العرب المهاجرين حتى أخذت الوطنية تعصف فى نفوسهم ، تثيرها المقارنات بين حاضرهم فى مهجرهم وماضيهم فى موطنهم . وتؤججها المقايسات بين حياة السعادة التى يشاركون فيها الأمريكيين الأحرار المستقلين ، وبين حياة الشقاء التى خلفوا أمتهم العربية تصطلى نارها فى بلاد العرب الخاضعة لظلم الحكم وذل الجهل .

أخذت العاطفة الوطنية المكبوتة فى نفوس أولئك الإخوان المهاجرين تتململ فى مكامنها وتأبى للانطلاق من مكامنها فى ظلال تلك الحرية الوارفة وأفياء ذلك الاستقلال الرطبة الناعمة وأية وسيلة أصلح لإشباع رغبة الوطنية فى مثل هذه الحال من الأدب على اختلاف أنواعه فنشأ للأمة العربية هنالك أدب وطنى قوى يمثل العاطفة الوطنية القوية فى نفس العرب ، وأخذ هذا الأدب يشرق بنوره وينصب بحرارته على نفوس العرب فى سائر أقطارهم فكان الرسول الأمين بين النفوس العربية المتألقة فى الغرب والشرق ، والعامل القوى فى تحريك الآمال بالحرية والاستقلال . وإنى محدث القارئ الكريم عن شعر القوة فى المهجر الأمريكى لشاعرين قويين فى عواطفهما الوطنية يصح أن نتخذ من شعرهما برهانا قاطعا على أن إخواننا العرب فى مهجرهم الثانى يحملون من العواطف الوطنية ما تحمل ، ويعملون لتحقيق الأمانى القومية ما نعمل

السيد رشيد سليم الخورى — الشاعر القروى — شاعر عربى يقطن مدينة سان باولو فى البرازيل ، له ثلاثة دواوين شعرية وهى الرشيديات ، والقرويات ، والأعاصير ، فى يدنا منها الآن ديوان واحد هو ديوان الأعاصير ، والذى يبدو لنا مما قرأناه للسيد ميخائيل نعيمة فى كتابه (الغربال) عن السيد رشيد الخورى ، ومما قرأناه فى مقدمة ديوان الأعاصير للسيد رشيد الخورى نفسه أن ما جاء فى ديوان الأعاصير هو أقوى أقسام شعر السيد رشيد الخورى على الإطلاق

لفت نظرنا فى ديوان الأعاصير مقدمة الديوان لأنها مكتوبة بقلم صاحب الديوان نفسه خلافا لسادة الشعراء الذين يقدمون دواوينهم بمقدمات مستجداة من أقلام ذوى الشخصيات الأدبية الكبيرة سواء كان ذلك التقديم حق صديق أو فى صديق ؛ أم منة كبير يفضل بها على صغير . ولفت نظرنا من تلك المقدمة تلك الخطوط الجميلة التى حدد بها الشاعر القروى مبدأه الوطنى تحديداً دقيقا بدت بمده عاطفته الوطنية فى قصائده واضحة جميلة مشرقة برغم هذا الضعف البلاغى الذى يبدو واضحا جليا على قصائد هذا الديوان النفيس

وقف الشاعر القروى أمام الأندلس فثارت فى نفسه الذكريات فأراد أن يحييها باسم بلاد العرب ولكن كيف يحييها باسم بلاد ترسف بقيود الذل والاستعباد ؟ إذن لابد من الصبر حتى يأذن الله للبلاد العربية بالاستقلال وحينذاك تهدى تحيتها للأندلس كما يهدى الكريم تحيته للكريم

فإذا بغداد عادت كالقديم موطن الشعر ودنيوان العلوم
وإذا رن بها عود الغديم مرجفا بالحق أعصاب النجوم
وسئيراً لوعة الليل البهيم ومديرا أدمع الفجر مداما
عند هذا سوف تهديك السلاما

وإذا بيروت أم النور ولى عن سماها أثقل الرايات ظلا
وإذا السيف من الصحراء سلا ناقضا من أربع الفيحاء دلا
وإذا لبنان بالأمر استقلا فابسنا العز أو متنا كراما
عند هذا سوف تهديك السلاما

واسمه الآن يقرر حق الاستقلال للأمة ويدلها على الوسيلة الصحيحة لإحقاق هذا الحق

إن ضاع حقك لم يضع حقان لك في نجاد السيف حق ثان
ما مات حق فتى له ولد له كف، لها سيف، له حدان
فابعث سيوف الهند من أغمادها تبعث بها الوتى من الأكفان

وإليك هذين البيتين من قصيدة له في الثورة السورية الكبرى يخاطب بها العربي القاتل في سبيل الحرية والاستقلال

إذا حاولت دفع الضيم فاضرب بسيف محمد واهجر يسوعا
«أحبوا بعضكم بعضا» وعظنا بها ذئباً فما نجت قطيعا

وإليك هذه القطعة من قصيدة نظمها إبان تلك الثورة السورية:

بدت ولها ممزقة القناع فقلت لها فديتك لا تراعى
فدون حماك أبطال الموالى مؤزرة بأبطال السيراع
رماح كالأفاعي مشرعات وأقلام كأنياب الأفاعى
أطلى واشهدي منهم هجوما ترى وثب القلاع على القلاع
وهل عربية هذا أخوها تراع إذا دعا للحرب داع

* * *

السيد الياس فتحل شاعر عربي يقيم في مدينة بونس إيريس عاصمة الأرجنتين له في يدنا ديوان السهام، وهذا الديوان مصدر بمقدمة بقلم صاحبه يرجع لها الفضل في دراستنا لنفسية الشاعر لأنها وصفت لنا هذه النفسية القوية أجمل وصف؛ كما صورها لنا شعر الديوان أجمل تصوير

أعجبنا في هذا الشاعر ثقته بنفسه وثقته بأمته فهو يعتقد بأن في إمكان الأمة العربية أن تمد من نفسها قوة ترجع بها سؤددها وتهيء لذاتها جبروتا يرد لها التالد من عزها، وهو لا يرى في قوة الناصبين للوطن العربي إلا ضعفا بجانب اتحاد الأمة العربية وثقتها بنفسها واعتمادها على حقها، وهو واثق بقدرته على تحريك شعور الثقة بالنفس والاعتماد على الذات في نفسية الأمة بقصائده القوية التي يقذف بها في وجه الضعف والوني بلا شفقة ولا رحمة، وإنك لترى هذا الواثق بنفسه المؤمن بأمته، لا يقيم للفشل في الجهاد وزنا، فهو لا يخاف الفشل لأنه مؤمن بالنجاح، ولهذا فهو يدعو الأمة العربية بحرارة للجهاد في سبيل الحرية جهاداً لا يعتوره الخوف من الفشل ولا تخالطه الخشية من الكلل والملل. ومن حق هذا الشاعر علينا الآن أن نورد له هذه العبارة التي جاءت في مقدمة ديوانه موجهة إلى فريق الضعفاء من الأمة الذين يقفون من المؤمنين موقف اللائم اللاحي

«ليست حمية الشباب هي التي تدفعني إلى هذه الحماسة، ولكنه إحساس بالإرهاق الذي يعانيه وطني المفدى، وما هذه الجمرات المشبوبة حماسة — لو تعلمون — وإنما هي إيمان راسخ»

ولا ننسى ونحن نولي هذا الشاعر إعجابنا بقوة عاطفته الوطنية أن نوجه إليه عتبنا لضعفه البلاغي الذي لو تنزه عنه شعره لجاء آيات بينات في القوة معنى ومبنى، ولنسمعه الآن ينشد نشيد المجد.

وإن ناصبتك الحرب دنياك كلها وحقك من ليل الحوادث غيهب
فلا تشك فالشكوى احتضار مخيب وإن يستحق النور شاك مخيب
بل استل من عالي إبائك منعدا تقاتل فيه من مضائك كهرب
وكافح به صرف الزمان وقل له سأبعث فيك الرعب من حيث تهرب

ولنسمعه يخاطب شباب البلاد الناعمين بتوافه اللذات

هبوا الشباب التذاذاً بالحياة أما في عالم المجد للذات ميدان؟
هذي الليالي التي تقضونها عبثا يبكي الإباء عليها وهو خجلان
يا حبذا لو رصدتم من شهودكم ساعاً بأي العلا والعز تزدان
إن البلاد إذا ضلت شبيبتها فكل آمالها فقد وخسران

وإليكم هذه القطعة الجميلة القوية من قصيدة له نظمها على لسان ثائر دمشقي يودع عروسه قبل الالتحاق بالثورة الكبرى

بلادي تدعوني إلى حومة الوغى ودعوتها الغراء أمر مقدس
فإن لم أكن في معالم الجيش هاجما تمور بصيحاتي الأعادي وتوجس
فلا أبهجت قلبي نسيمات دمر ولا ضمني في شامة الأرض مجلس